أطلال الخلافة وخليفة الأطلال:
رؤية عبد الله بن المعتز السياسية من خلال شعره

د. حمد عبيد العجمي
أستاذ مشارك قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب، جامعة الكويت
hamadoalajmi@gmail.com

فالح علي العازمي
عضو رابطة الأدباء الكويتيين، الكويت
al.ajhr@hotmail.com

المستخلص

يناقش هذا البحث رمزية الطلل عند عبد الله بن المعتز فمن خلال ديوان ابن المعتز نجد حضور الطلل لافتًا للانتباه لكثرته ونوعيته، فنرى للأطلال ارتباطًا مباشرًا أو غير مباشر لقضية ابن المعتز الرئيسة وهي قضية سياسية ترتبط ببيت الخلافة والتنافس عليها. وبناءً على فك رمزية الطلل عند ابن المعتز يستمر هذا البحث في تحليل الأبيات التي تأتي بعد الأطلال لكشف رؤية ابن المعتز السياسية من خلال شعره. وبذلك نحاول أولًا: فك رمزية الطلل، وثانيًا: سبر العلاقة والارتباط بين موضوعة الطلل عند ابن المعتز والموضوعات التي تأتي بعدها. ولتحقيق ذلك يركز هذا البحث على قصيدة واحدة (الرائية)، من غير إغفال للقصائد والأبيات التي تنتمي لهذه الطريقة عند ابن المعتز. وخلاصة البحث أن كل قصيدة طللية من هذا النوع من قصائد ابن المعتز غالبًا ما تحمل ثلاثة مكونات: أولًا، الطلل وهو يرمز إلى بيت الخلافة، أما المكون الثاني فهو الفخر ولأنه مرتبط بالمكون الثالث فقد يأتي بعده ويعكس هذا المكون رغبة الشاعر في استعادة الملك المفقود، وثالثًا، الأعداء وهم سبب خراب بيت الخلافة.

الكلمات الدالة: ابن المعتز، الأطلال، رمزية، الخلافة العباسية.

مقدمة:

إن للأطلال[1] حضورًا كبيرًا في القصيدة العربية، وكان مكونا رئيسًا من مكوناتها في الجاهلية والإسلام. ثم أخذ هذا المكون (الأطلال) بالتراجع في الشعر العباسي مع المحافظة على وجوده. والشعراء فيه يتفاوتون في استخدام الأطلال ويختلفون في غرضهم منه. ويعلل ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) الابتداء بقوله: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها" (الدينوري، ١٩٨٢: ج١، ٧٤). والجدير بالإشارة إليه في كلام ابن قتيبة أنه رد سبب الابتداء بالطلل إلى

[1] "والطلل ما شَخَص من آثار الديار، والرَّسْمُ ما كان لاصِقاً بالأرض"، والجمع أطلال وطلول (انظر ابن منظور، ١٩٩٣: مادة طلل).

أمر نفسي، متجاوزًا الصورة المجردة للأطلال، وهذا ما يجعل التأويل المتجاوز للمادة سائغًا مقبولًا. وهذا لا يعني أن نتجاوز في التأويل من دون قرينة تجيزه وتسوغه، فمعلوم أن كثيرًا من الشعراء استخدموا (الأطلال) بحقيقتها -ككثير من شعراء الجاهلية- وبعضهم استخدمها تقليدًا كونه يعدها أحد تقاليد الشعر ونظم القصيدة. ويقول حسين عطوان: "إن المقدمات قديمها وجديدها كانت تقليدًا استغله الشعراء لتصوير حياتهم العاطفية والفكرية" (عطوان، ١٩٨٢: ٣٩٩). ولذلك مهما كان الغرض من استخدام (الأطلال) فإنها غالبًا تستخدم لتوظيف عاطفة ما لدى الشاعر.

وقد حاول الباحثون في عصور متأخرة استنطاق الأطلال، ذلك الرسم الذي يصفه الشعراء منذ العصر الجاهلي بشكل مكثف في قصائدهم، فعلى سبيل المثال في معلقة لبيد ترى الباحثة Suzanne Stetkevych أن الطلل يشكل لدى الشاعر وعيًا بالفناء، فناء الحضارة البشرية، وفناء البشر، وفناء الشاعر بشكل خاص. فالطلل الصامت والثابت أمام مرور الزمن يوحي للإنسان بأن البشر عابرون ومتحولون، وتخلص الباحثة إلى أن الأطلال تعبير مجازي عن حتمية الموت والفناء (S. Stetkevych, 1993: 21-22). ومن أهم الدراسات التي تناولت شعر ابن المعتز دراسة Robabeh Ramezaniو M. Asghari وAli Hosein فقد ركزت الدراسة على تنوع الوصف عند ابن المعتز وحاولت استكشاف تأثير السلطة التي يتمتع بها ابن المعتز وتأثير مركزه في السلطة العباسية. وركزت الدراسة بشكل مباشر على انعكاس حياة ابن المعتز على شعره خاصة حادثة نفيه وحادثة مقتل أبيه مما كرس نغمة العداء والبغض في شعره. والمثير في الدراسة أنها بينت كيف اختلف ابن المعتز عن غيره من الشعراء العباسيين كالبحتري وابن الرومي والمتنبي، إذ تناول موضوعات مشابهة للموضوعات السائدة عند هؤلاء الشعراء ولكن نظرة ابن المعتز للمجتمع المحيط به كانت مختلفة، فقد كان ينظر من الأعلى للمجتمع في الأسفل (Robabeh Ramezani et al, 2015).

والدراسات التي تناولت شعر ابن المعتز بشكل عام كثيرة لكنها لم تعمد إلى تفسير شعر ابن المعتز ورمزياته السياسية فعلى سبيل المثال درس محمد مرشد قسيم القداح القيم الجمالية في شعر ابن المعتز مركزًا على إبراز جماليات شعر ابن المعتز من خلال دراسة لغته وصوره الفنية (القداح، ٢٠١٥). أما فرج ميلاد محمد عاشور فقد تناولت دراسته أسلوب التشخيص عند ابن المعتز وناقش تنوع أساليب ابن المعتز موردًا أمثلة عليها ليبين مدى اتكاء الشاعر على هذا اللون الاستعاري من غير تفسير أو تأويل لأبعاد أسلوب التشخيص عند ابن المعتز (عاشور، ٢٠١٧). وتميزت دراسة الشافعي جلال الشافعي بتناول جزئية محددة عند ابن المعتز في مقال بعنوان "الشباب والشيب في شعر ابن المعتز: دراسة موضوعية وفنية" وقد درس الشافعي صور الشباب والمشيب عند ابن المعتز وتبريرات الشاعر للمشيب وآماله في العودة إلى الشباب (الشافعي، ٢٠١٨). ولكن هذه الدراسة لا تتجاوز التفسير الأولي للأبيات وانعكاسها على شخصية الشاعر وطبيعة حياته. وتجدر الإشارة إلى أن الموضوع الذي تناوله الشافعي موضوع يحتمل قراءة أعمق لتأويل فكرة الشباب والشيب عند ابن المعتز.

ولذلك رأينا ضرورة دراسة ظاهرة الأطلال في شعر ابن المعتز محاولين الإجابة عن تساؤلات لدينا من أهمها كيف لشاعر حضري مولع بالتجديد أن يتمسك بتقليد شعري قديم ويكثر منه كثرة مفرطة؟ ثم زاد وجاهة هذا التساؤل عندنا أمر لحظناه في قصائده ذات المقدمات الطللية وهو أنها ذات ملامح واحدة تقريبا ولها نفس المكونات في معظمها. فإذا ذكر الطلل فإنه يذكر (العداوات) و(الفخر)، مما يعني أن للطلل هنا دلالة محددة، وأن استخدام الطلل لم يكن أمرًا اعتباطيًا، بل له مغزاه ووظيفته. وبعد قراءة الديوان والتمحيص في قصائده وتحليلها اهتدينا إلى دلالة الطلل عند ابن المعتز، فما الطلل عند ابن المعتز

إلا رمزٌ للخلافة، وأن اقتران (الطلل) (بالأعداء) و(والفخر) هو بيان لسبب استحالة الدار العامرة إلى أطلال بسبب الأعداء، والفخر هو إشارة إلى أنه سيعيد المجد والحياة لهذه الأطلال البالية. ومن الأدلة على وجاهة تأويلنا هي أبياته التي يذكر فيها الأمر صراحة كقوله:

هاتيكَ دارُ الملكِ مقفرةٌ ما إنْ بِها من أهلها شَخصُ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٣٧)

وقوله من أرجوزة يمدح فيها المعتضد (٢٤٢-٢٨٩هـ) يصف ما فعله الأتراك بالخلافة:

وكلَّ يومٍ عَسكرًا فَعَسكَرا بالكَرخِ والدُّور مواتًا أحْمَرَا
كَذاكَ حتى أقفروا الخِلافَة وعَوّدوها الرُّعبَ والمَخافة
فتلك أطلالٌ لهم قِفَارا تَرَى الشياطينَ بها نَهَارا

(ابن المعتز، د. ت: ٤٠٤)

وهذه دلالة واضحة صريحة على أن ابن المعتز يرى أن الخلافة أصبحت طللًا، وإن لم تتوافر فيها صفات الطلل الحقيقي من عفاء وخلو من الناس، لكنها في نظر ابن المعتز تقفر إن لم يكن فيها من يحفظ هيبتها ويعيد الأمن إليها. ويدلنا على ذلك أيضًا أنه قبل خلافة المعتضد لم يكن يذكر النماء والتجدد في القصائد الطللية، لكن عندما مدح المعتضد ذكر النماء وعودة الطلل إلى جماله وسابق عهده يقول:

عَرَفَ الدَّارَ فَحَيّا ونَاحَا بَعدَما كَانَ صَحا واسْتَرَاحَا

ثم يذكر البرق والغيث حتى يأتي على بيته:

وسَقَى أطْلَالَ هِندٍ فأضْحَتْ يَمرَحُ القَطرُ عَليها مِراحا

دِيمًا فِي كُلِ يَومٍ ووبلًا واغتِبَاقًا للنَدَى واصْطِبَاحا

(ابن المعتز، د. ت: ١٢١-١٢٢)

ثم يمدح الدار ويثني عليها، مما لا يدع مجالًا للشك أن المقصود بالأطلال هو بيت الخلافة، وسنحاول إثبات ذلك في تحليلنا للقصيدة. وقبل أن نبدأ في تحليل القصيدة يتوجب علينا عرض أبرز ملامح حياة ابن المعتز ليساعدنا ذلك السياق التاريخي على فهم وتحليل قصيدة ابن المعتز.

عبد الله بن المعتز:

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي. سليل الخلفاء وربيب بيت الملك، ولد عام ٢٤٧هـ (ابن خلكان،١٩٧٨: ج٣، ٧٦) في نفس العام الذي قتل فيه جده المتوكل (٢٠٥-٢٤٧هـ). عاش سني عمره الأولى في كنف أبيه المعتز (٢٣٢-٢٥٥هـ) مترفًا مدللًا في قصر والده في سامراء، حتى إن أباه أقطعه الاقطاعات وضرب باسمه الدنانير وهو ما يزال صغيرا (الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ٤٠)، وفي ضرب الدنانير باسمه يقول البحتري:

وأبهجنا ضرب الدنانير باسمه وتقليده من أمرنا ما تقلدا

(البحتري، ١٩٧٧-١٩٧٨: ج٢، ٦٧٢)

وما كاد يبلغ التاسعة من عمره حتى فجع بأبيه مقتولًا على أيدي الأتراك شر قتلة. ومن بعد عيشه القرير في القصور، نُفي مع جدته إلى مكة، وكان يسمع عويل جدته قبيحة[٢] وهي تردد هذا الدعاء" اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدد شملي، وأخذ مالي وغربني عن بلدي، وركب الفاحشة مني" (الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ٤٩) مما كسر نفسية هذا الصبي الذي لا يكاد يصدق سرعة انتقاله من حال مترف غض إلى حال بؤس وشقاء، وهذا أول ما رسخ رغبة الانتقام في نفسية ابن المعتز. وبعد عام كامل في منفاه في مكة استدعاه المعتمد وأهلَهُ إلى سامراء من جديد، وتفرغ لطلب العلم والاجتهاد فيه وكأنه كان يعد نفسه لشيء عظيم وهو الخلافة، كما أنه كان مكبًا على الشراب مسرفًا فيه، ولعل هذا الانكباب كان سببه ما شهد من مقتل أبيه، خصوصًا وأنه كان يرى قتلة والده يصولون ويجولون في أرجاء بيت الخلافة، بل وعلى سنتهم الأولى مِن تعيين من أرادوا وخلع من أرادوا. ويعلل شوقي ضيف سر انكبابه على الشراب بقوله: "كان يكب على اللهو يُغرق فيه أحزانه، لكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحي من نفسه" (ضيف، ١٩٧٣: ٣٣٥)، ويذكر يونس السامرائي نفس العلة في انكباب ابن المعتز على اللهو بقوله: "لعله رأى الانصراف إلى هذه الحياة ضربًا من تأسية النفس مما تكابده من آلام وأحزان" (الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ٤٩).

لقد كانت نفسه محطمة بلا ريب، فقد اشتم رائحة الدم صغيرًا، وعاش خائفًا متوجسًا كبيرًا، مما انعكس أثر ذلك بشكل واضح على شعره. ولا شك أن أبيات المرح والسرور تتبدى لنا في ديوانه من خلال جلوسه في مجالس اللهو ورحلات الصيد والمداعبات، لكنها لحظات آنية، فالأصل في نفسيته الحزن، والعارض من حاله السرور، وهذا ما يخبرنا به ديوانه فهو لا ينفك يذكر الموت والتوبة والسهر والهم و(الأطلال)، فهذا أثر انعكاس مزيج حياته الغريب على شعره. ويقول طه حسين واصفًا حياة ابن المعتز: "لقد كانت حياته مزاجًا غريبًا من السعادة والشقاء منذ أولها إلى أن انتهت" (حسين، ٢٠١٤: ١٤٨). وما إن بلغ التاسعة والأربعين من عمره حتى اضطرب كرسي الملك وحين وقع الاختيار عليه وأخذ الخلافة، مكث بضع يوم ثم قتل، يقول طه حسين: "بدأت حياته بعنف وختمت بعنف" (حسين، ٢٠١٤: ١٤٨)، فكانت مدة حكمه أقصر مدة حكم في التاريخ، وكانت وفاته عام ٢٩٦هـ.[٣]

تحليل القصيدة (الرائية):

اخترنا هذه القصيدة لكونها أكثر القصائد وضوحًا للنموذج الذي قررناه في بحثنا هذا وهو أن كل قصيدة طللية تحمل ثلاثة مكونات: أولًا، الطلل وهو يرمز إلى بيت الخلافة، وثانيًا، الفخر وهو يشير إلى رغبة الشاعر في استعادة الملك المفقود، ويأتي ثالثًا، ذكر الأعداء المتسببون بخراب بيت الخلافة. فالتعرف على هذه المكونات الثلاث يساعدنا على استكشاف الأنموذج بشكل واضح، خصوصًا أنها من قصائده الأخيرة الناضجة، ونحن هنا نتعامل مع الطلل على أنه بيت الخلافة.

يقول ابن المعتز: (الخفيف)

---

[٢] من جواري المتوكل المشهورات بالجمال وهي رومية الأصل، وسميت قبيحة من باب المضادة في التسمية خوفا عليها من العين، توفيت بسامراء بعد عمر حافل بالأحداث والحوادث سنة ٢٦٤هـ (جواد، ١٩٥٠: ٧٠).

[٣] ولعل لذلك ما دفع بعض الكتاب لحذف اسم ابن المعتز من قائمة أسماء الخلفاء العباسيين.

١- أيُّ رَسمٍ لِآلِ هِندٍ وَدارِ		دَرَسا غَيرَ مَلعَبٍ وَمَنارِ
٢- وَأثافٍ بَقَينَ لا لِإشتِياقِ		جالِساتٍ عَلى فَريسَةِ نارِ
٣- وَعِراصٍ جَرَت عَلَيها سَواري الـ		ريحِ حَتّى غودِرنَ كَالأسطارِ
٤- وَمَغانٍ كانَت بِها العَينُ مَلأى		مِن غُصونٍ تَهتَزُّ في أقمارِ
٥- سَحَقَتها الرِياحُ في كُلِّ فَنٍّ		وَمَحَتها بَواكِرُ الأمطارِ
٦- أينَ أهلُ الدِيارِ عَهدي بِكُم فيـ		ها جَميعاً لا أينَ أينُ الدِيارِ
٧- وَلَقَد أهتَدي عَلى طَرُقُ اللَيـ		لِ بِذي مَيعَةٍ كَميتٍ مُطارِ
٨- بَلَّلَ الرَكضُ جانِبَيهِ كَما فا		ضَت بِكَفِّ النَديمِ كَأسُ العُقارِ
٩- لا تَشيمُ البُروقَ عَيني وَلا أجـ		عَلُ إِلّا إِلى العِدى أسفاري
١٠- لا وَلا أرتَجي نَوالاً وَهَل تَسـ		تَمطِرُ الناسُ دَيمَةَ الأمطارِ
١١- هاشِميٌّ إذا نُسِبتُ وَمَخصو		صٌ يَبيتُ مِن هاشِمٍ غَيرَ عارِ
١٢- أخزُنُ الغَيظَ في قُلوبِ الأعادي		وَأحِلُّ الجَبّارَ دارَ الصِغارِ
١٣- وَلِيَ الصافِناتُ تَردي إِلى المَو		تِ وَلا تَهتَدي سَبيلَ الفِرارِ
١٤- وَسُيوفٌ كَأَنَّها حينَ هُزَّت		وَرَقٌ هَزَّها سُقوطُ القِطارِ
١٥- وَدُروعٌ كَأَنَّها شَمَطَ الجَعـ		دِ دَهيناً تَضِلُّ فيها المَداري
١٦- وَسِهامٌ تُردي الوَرى مِن بَعيدٍ		واقِعاتٌ مَواقِعَ الأبصارِ
١٧- وَقُدورٌ كَأَنَّهُنَّ قُرومٌ		هُدِرَت بَينَ جِلَّةٍ وَبِكارِ
١٨- فَوقَ نارٍ شَبعى مِنَ الحَطَبِ الجَز		لِ إِذا ما اِلتَظَت رَمَت بِالشَرارِ
١٩- فَهيَ تَعلو اليَفاعَ كَالرايَةِ الحَمـ		راءِ تَفري الدُجى إِلى كُلِّ سارِ

٢٠- قَد تَرَدَّيتُ بِالمَكارِمِ دَهراً		وَكَفَتني نَفسي مِنَ الافتِخارِ
٢١- أنا جَيشٌ إذا غَدَوتُ وَحيداً		وَوَحيدٌ في الجَحفَلِ الجَرّارِ

(ابن المعتز، د. ت: ١٦٧-١٦٨)

في البيت رقم ١ يستفتح ابن المعتز قصيدته بتساؤل تعلوه نبرة الحزن والانكسار عما انمحى من رسوم آل هند ودورهم، ولم يتبق منها غير ما يذكر بأيام السرور والغبطة (الملعب) وما يستدعي صورة النور المتلاشي (المنار). إن ذكر هاتين الكلمتين وإبرازهما في مطلع القصيدة ليدل على أكثر شيء يفتقده ابن المعتز وتفتقده الخلافة وهما الأمن والعدل[٤]، وهذا ما تدل عليه الكلمتان (الملعب) و(المنار) فهما كناية عن الأمن والعدل، فلا يمكن تصور وجود (ملعب) تدرج عليه الصبيان والجواري من دون أمن[٥]، ولا يمكن أن يُرى النور من غير عدل، ومن دلالات كلمة النور في الثقافة العربية، العدل، فقد جاء في القرآن الكريم {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} (الزمر:٦٩)، قال الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨ هـ): "بما يقيمه فيها من الحق والعدل" (الزمخشري، ٢٠٠٩: ٩٤٨). وقال ابن كثير (٧٠١-٧٧٤ هـ): أي: "أضاءت يوم القيامة، إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء" (ابن كثير، ١٩٩٧: ج٧، ١١٨). وهذان الأمران هما أشد ما كانت تفتقر إليه الخلافة العباسية آن ذاك خاصة في الحقبة الثانية من العصر العباسي، وهما في الوقت ذاته أشد ما كان يُتَطلع إليه، ولذلك جاء مدح ابن المعتز للمعتضد ورثاؤه مختلفًا صادقًا، إذ بالمعتضد تحققا وبموته ذهبا من جديد (انظر سلمان، ٢٠٠٣: ٢٤٩).

وفي البيت رقم ٢ يكمل ابن المعتز رسم المشهد المأساوي الحزين الذي آلت إليه الخلافة فيأتي بعنصر رئيس من عناصر المشهد الطللي وهو (الأثافي)، وهي حجارة توقد النار بينها. ولم يكتف الشاعر بذكر الأثافي في المشهد بل ألمح إلى حالتها وأن بقاءها ليس اشتياقًا لكنها مكرهة على البقاء لتشهد مأساة الفريسة المقتولة وهي النار التي تُوقد بينها. والنار في هذه السياق رمز للحياة والتجدد وتوحي بالكرم وكثرة النازلين إلى القصر، فلا حياة بعد قتل هذه النار التي أضحت فريسة في العراء. ووعي ابن المعتز في استخدام رموزه ورسم مشهد شعري متكامل جعله يستخدم كلمة (فريسة) مما يعني أن هذه (النار) لم تنطفئ جرّاء أمر طبيعي، لكنها مُغتالة سُلبت وهجها بفعل متعمد. وسيكون لهذه النار شأن في آخر القصيدة. ومما يجدر بالإشارة إليه هنا أن (الأثافي) عند ابن المعتز تتخذ صورة قاتمة تتجاوز كونها عنصرًا ماديًا مجردًا، بل هي تستدعي لديه صورة معنوية عميقة، حيث يشبهها بعوائد المريض في مقدماته الطللية كقوله:

فيها ثَلاثٌ كالعَوَا		ئِدِ يَكتنفنَ المُدنَفَا

[٤] كأنه يشير إلى عهد المتوكل، وينقل شوقي ضيف عن المسعودي قوله: "كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل")ضيف، ١٩٧٣: ٤٤).

[٥] "مَلاعِبُ الصبيانِ والجواري في الدار من دِياراتِ العرب: حيث يَلْعَبُونَ، الواحدُ ملعب" (ابن منظور، ١٩٩٣: مادة لعب).

(ابن المعتز، د. ت: ٢٧٥)

وقوله:

خَلَتْ وعَفَتْ إلا أثافٍ كأنها		عَوَائدُ ذِي سُقم بَطيءٌ قُعودُها

(ابن المعتز، د. ت: ١٣٥)

ومن نثره ما نقله أبو إسحاق الحصري (٤٢٠-٤٨٨ هـ): "الكذب والحسد والنفاق أثافي الذل" (الحصري، ٢٠١٠: ج٣، ١٦٦). فصورة الأثافي المتكررة في شعر ابن المعتز تأتي عادة بما يشبه الشاهد على المصيبة، أو ما يشبه النُصب على المأساة. وقد تكون في هذا البيت رمزا لما تبقى من الخلافة من أمور شكلية تحيط بخلافة أشبه بالنار الهامدة.

ويستمر ابن المعتز في البيت رقم ٣ في رسم صورة الطلل فيذكر العراص[٦] التي أخذت تتعاقب عليها (السواري) حتى تغيرت ملامحها وانمحت إلا بقايا منها، وهنا يجب أن نتأمل كلمة (سواري الريح) حيث إنها حجر البناء في هذا البيت، ولا يمكن قراءة البيت قراءة منتجة إذا لم نفكك هذه الكلمة ونقف عندها. فالسواري جمع سارية وهي السحابة التي تسري في الليل[٧] غير أن هذه السحابة لا تكتفي بالمرور ليلًا فحسب عند ابن المعتز بل هي تمطر بشدة مع (رياح) عتية شديدة لم تُبق على تلك العراص، لكنها غادرت العراص بعد أن محت كل شيء فيها. وهو هنا يصف حال الخلافة وما آلت إليه، فما زالت الدسائس والمكائد تتعاقب على بيت الخلافة حتى صارت إلى ما صارت إليه من التفكك والضعف والخوف، ونلاحظ أن هذه (السواري) التي هي (الدسائس) لم تتجرأ في العبور على هذه (الرسوم) أي (بيت الخلافة) إلا بعد أن انطفأ (المنار) [٨]وأضحت النار (فريسة) مقتولة. ومما يؤكد أن (السواري) كناية تتوارى وراءها معاني الدسائس ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها الخلفاء من قبل والتي كان يتعرض لها ابن المعتز نفسه هو قوله:

يا لياليَّ القَديماتِ ارجِعي		قَد تَخلّفتِ بليلاتٍ شدادِ
نبأ خُبِرتُه من مَعشَرٍ		أَخْرَجَتْ أَضْغَانهم حَيّاتِ وادي

(ابن المعتز، د. ت: ١٥٦)

هنا نلاحظ أن (ليلات شداد) تكاد تساوي (سواري الريح) قوةً من جهة التعبير والشعور، لا من جهة البنية الفنية. ففي التعبير الأول كان ابن المعتز مباشرًا مصرحًا، وفي الثاني مورّيًا مُلمِّحا، وكلا التعبيرين متساوٍ من جهة البناء اللغوي والتركيب النحوي، مضاف ومضاف إليه، وكلا التعبيرين متساويان في الزمن (الليل)، كما أن (الليالي) لا تفيد شيئا من دون إضافتها إلى (شداد) و(السواري) ليست شيئا من دون

[٦] والعَرْصةُ: "كل بُقْعةٍ بين الدور واسعةٍ ليس فيها بناء" (ابن منظور، ١٩٩٣: مادة عرص).

[٧] السارية هي "السحابة التي تسري ليلا وجمعها السواري" (ابن منظور، ١٩٩٣: سرا).

[٨] سبقت الإشارة إلى أنها كناية عن العدل.

(الريح)، إذن هما تعبيران لمعنى واحد، ووصفان لحدث واحد، غير أن البيتين الصريحين يجليان لنا جزئية (سواري الريح) في اللوحة الطللية، حيث إن سبب الشدة قوم متوارون كشفت الضغينة أفعالهم التي كانت تحدث في الليل وتحت عباءة الظلام، وهنا يتبادر إلينا معنى الدسيسة والاغتيال. ولسنا نُبْعِدُ كثيرا في هذا التأويل، ففي موضع آخر من ديوانه يقول في مدحه لآل وهب لحمايتهم له من -فيما يبدو من ظاهر البيت-محاولة اغتيال تعرض لها:

وعدوٍ يُريدُ قَتلي ولكن		يدُ صُنعٍ منهم تَردُّ علَيهِ

(ابن المعتز، د. ت: ٣٨٦)

ويبدو أن هذه المحاولات مستمرة غير متوقفة حيث يفيد هذا المعنى قوله: (يريد قتلي) والفعل المضارع هنا يدل على الاستمرارية. وقوله أيضا:

فَعَلى مَ تَلمَعُ لي سُيوفُكُمُ		حاشايَ من جَزَعٍ ومن جُبنِ

(ابن المعتز، د. ت: ٣٤٧)

ونلاحظ هنا أن كلمة (تلمع) وقوله (حاشاي من جزع)، تفيدان تعرضه لمحاولات تخويف وتهديد غير مباشر باستمرار. وقوله كذلك في موضع آخر وإن لم يكن صريحًا لكنه يتسق مع السياق الذي رسمناه هنا من تعرضه لمحاولات اغتيال:

مسهدٌ في ظَلامِ الليلِ أواهُ		عَضّتهُ للدهرِ أنيابٌ وأفواهُ
إن كان يُخطئُ سَمْعي ما أقدره		فَليسَ يُخطئُ ما قَد قَدَّرَ اللهُ

(ابن المعتز، د. ت: ٣٧٥)

فما الذي يجعله مسهدًا لا يطعم الغمض وهو الأمير الخالي من أسباب السهر العادية التي قد تطال العامة كهموم الرزق وغيرها، وليس المرض هو الذي حال بينه وبين النوم كما يدل البيت على ذلك. إذن ما عساه يكون غير أمر متصل ببيت الخلافة والخليفة؟ ولعل هذا الأمر هو الخوف والقلق من الغدر به أو بالخليفة، وقد يتخذ هذا الغدر شكلًا من أشكاله الشائعة في عصر ابن المعتز وهو (الاغتيال)، ولو تأملنا البيت الثاني سيدلنا على أنه يسمع أشياء تخالف تقديراته وظنونه، وكأنه يسمع معسول الكلام ويبصر حالة مخادعةً تُظهر غير ما تبطن من قِبل صاحبها المتربص المخادع، فهو بسبب هذه الحال لا يجد سبيله إلى النوم والراحة، ثم نراه يضع شطرًا يشع إيمانًا ويقينًا بقدر الله لعله يخفف عنه بعض آلامه "فليس يُخطئُ ما قد قدر الله"، فلعله يرى الإيمان خير ما يُلجأ إليه في مثل هذه الحال الكسيرة المتألمة. ونلاحظ أن شقاءه بقربه من بيت الخلافة لا ينعكس في شعره فقط بل يتجاوزه إلى نثره فيتخذ أحيانًا حال الشكوى وأحيانًا تتستر هذه الشكوى بستار الحكمة، ونكتفي هنا بإيراد شاهد واحد من نثره، إذ يقول: "أشقى الناس أقربهم إلى السلطان، كما أن أقرب الأشياء من النار أسرعها احتراقًا" (الذهبي، ١٩٨٣: ج١٤، ٤٤)، فهو على حد عبارته أشقى الناس جميعًا. ولماذا يكون القريب من الخليفة هو الشقي بدلًا من أن يكون هو السعيد؟

جواب ذلك هو التأمل في بيت الخلافة نفسه في زمن ابن المعتز خصوصًا، فالشقاء كان لفقدان الأمن، وفي عصر ابن المعتز كان أكثر الناس فقدانًا للأمن هم الخلفاء ومن يتصل بهم لا العامة. ولعل ما يؤكد رأينا من خوفه المستمر من (الاغتيال) وفقدانه للأمن هو قوله:

مَن يَشتَري حَسَبي (بأمن) خمولِ؟		من يَشتَري أدَبي بِحَظِ جَهولِ؟

(ابن المعتز، د. ت: ٣٢٦)

لقد بلغ به الخوف حدًا رهيبًا جعله يعرض حسبه ثمنًا للأمن المفقود، ولا يبلغ الأمر بأحد هذا المبلغ -أي أن يبيع حسبه- إلا وقد فَقَدَ كل وسيلة وكل حيلة في أن يحصل على الأمن. وفي هذا البيت "من يشتري..." إشارة لطيفة إلى سبب ما يتعرض إليه من محاولات اغتيال وذلك السبب هو نبوغه واستحقاقه من جهة، ونسبه من جهة أخرى وهذا ما يدل عليه قوله: "بأمن خمول"، فلا هو خامل الفعل ولا خامل النسب، وقد ينال الأمن من كان خامل الذكر أو خامل النسب، فانتفاء الخمول عن نسبه أمر معروف، أما انتفاء الخمول عن فعله فهذا يكشفه لنا الحوار الذي دار بين العباس ابن الحسن وابن الفرات عندما أرادا ترشيح رجل للخلافة، والذي حال بينه وبين الخلافة هو هذا النبوغ بنص ابن الفرات والذي كان معاديا لابن المعتز، وهذا السبب بعينه هو الذي جلب عليه محاولات الاغتيال (انظر الصابي، د. ت: ١٣٠-١٣١). إذن لقد كان خائفًا متوجسًا من محاولات (الاغتيال) فقد شهد كثيرًا منها بحسب شعره، وهو يراها ويحس بها بل هو على دراية بأكثرها وإن لم يشارك بها كما يقول شوقي ضيف: "إنه لم يكن ينغمس في مؤامرات البلاط العباسي" (ضيف، ١٩٧٨: ٢٦٣). ومما يؤكد ما ذهبنا إليه صراحة من تعرضه لمحاولات اغتيال عديدة هو قوله في أحد الوزراء:

يا ربِ عافِ الوزيرَ واصرفْ		بي عنهُ مَكروهَ كُلِ صرفِ
أصلحَ بَيني وبَين دَهري		وقامَ بَيني وبَينَ حَتفِي

(ابن المعتز، د. ت: ٢٧٢)

فليس هناك أدل على رأينا من قوله: "وقام بيني وبين حتفي" وهذا هو الذي حدا به لأن يستخدم في لوحته الطللية كلمة (سواري) فهي كلمة تحمل طاقة للتعبير عن الكوارث، وقد جاء في لسان العرب: "واستعار بعضهم السرى للدواهي والحروب والهموم" (ابن منظور، ١٩٩٣: مادة سرا). لذلك استعارها هنا ابن المعتز لمناسبة الحال. فهو يعي تمامًا ما يكتب، ولذلك يجدر بنا التأمل في كل كلمة يستخدمها في قصائده الطللية.

وفي البيت رقم ٤ يتوقف ابن المعتز قليلًا عن رسم اللوحة الطللية البائسة، ليستعيد شيئًا من اللوحة الماضية المشرقة للخلافة العباسية، حيث كان الأمن والجمال والعيش الخصب الناعم، هناك في (الزمن الماضي) كانت العين مملوءةً بكل (مَن) يسرها، وقد ركز ابن المعتز في استعادته للصورة المشرقة على ساكني المغاني لا المغاني ذاتها، وهو فعل ذلك في أكثر من قصيدة طللية، ونعرض واحدة منها على سبيل المثال:

خلا الربع من غُمّاره ولقد يُرى		جميلًا بهم، والمُستزَارُ قريبُ
إذ العَيشُ حُلوٌ ليسَ فيه مَرارةٌ		هنيٌّ، وإذ عُودُ الزَّمانِ رطيبُ
وفي كُلِ تَسليمٍ جَوابُ تَحيةٍ		وفي كلِ لَحظٍ للمُحبِ حَبيبُ

(ابن المعتز، د. ت: ٥١)

فهو يركز على من كانوا في الديار أكثر من الديار ذاتها، إذ هم الذين كانوا سببًا في نماء الديار وإحالتها إلى جنة أضحت مفقودةً بالنسبة له. ونحن لا نبالغ في وصفها (بالجنة المفقودة)، ففي موضع من ديوانه يصف ابن المعتز دار الخلافة بصفات الجنة حيث جعلها تتميز عن بلاد الدنيا كلها وكأنها ليست منها وإنما فوقها، بل لم يكتف ابن المعتز بخلع صفات الجنة على الخلافة، وإنما بلغت به النشوة مبلغًا جعلته يفضلها على الجنة ذاتها، إذ يقول:

لا أرَى مِثْلَك ما عشتُ دارًا		ربوةً مخضرةً أو بِطَاحا
لو حَلَلنا وسطَ جنّة عَدْنٍ		عَلَيها اقتراحا[9]لاقتَرَحنَاك

(ابن المعتز، د. ت: ١٢٢)

فهو لو كان في جنة عدن وخُيِّر بين دار الخلافة والجنة لاختار دار الخلافة. وما قال ذلك إلا يوم أن تجددت الخلافة واستعادت رونقها، واستعاد ابن المعتز (جنته المفقودة)، والبيتان من قصيدة قالها في مدح المعتضد[١٠] حيث عادت الخلافة إلى قوتها وتحقق فيها (العدل) و(الأمن).

أما في البيت رقم ٥ فيباغت ابن المعتز القارئ بسرعة الانتقال من الزمن الماضي السعيد إلى الحاضر(المسحوق)، وكان الظن به أن يسترسل في وصف الصورة الجميلة المستعادة كما فعل في قصائده الطللية الأخرى ولكنه لم يفعل، وربما أراد بهذا الاقتضاب في الصورة والسرعة في التحول أن يبين سرعة تبدل الأوضاع وانقلابها رأسا على عقب، وكأن ابن المعتز وهو يستعيد تلك الصورة الجميلة يذرف دموع الحزن على (جنته)، وحين عاد إلى حاضره ورأى دمارها تلهب صدره بمشاعر الغضب والسخط، ليكون نتاج مشاعر الحزن والسخط هذه الكلمة العنيفة "سحقتها" جرسًا ومعنى، فصَدَّرَ بها بيته الخامس.

ومجيء كلمة (سحقتها) في أول البيت يعكس الواقع السيء الذي يعيشه ابن المعتز والحال السقيمة التي تمر بها الخلافة، كما أن كلمة (المغاني) التي صُدِّرَ بها البيتُ الرابع عكست الماضي الجميل الذي كان يهنأُ به الشاعر. ونتوقف عند كلمة (سحقتها) فهي جديرة بالعناية، فمن معانيها التي وردت كما في اللسان:

---

[9] اقترح: بمعنى اخْتار، (ابن منظور، ١٩٩٣: مادة قرح).

[١٠] بلغت عدد مدائحه في المعتضد ١٦ قصيدة و٩ مقطوعات ومجموع الأبيات في القصائد والمقطوعات بلغ ٨٢٦ بيتًا (انظر الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ٧٢)

السحق هو "أشد الدق" وهو أيضا "الدق بعد الدق"، وسحقت الريحُ الأرضَ "إذا غيرت الأرضَ بشدة هبوبها" (ابن منظور، ١٩٩٣: مادة سحق). فعندما نتأمل في هذا المعنى "أشد الدق" وننزله على واقع الدولة العباسية في عهد ابن المعتز، نجد أنها كانت تتعرض لثورات الطالبيين وثورة الزنج[١١]، ودسائس أفراد بيت الخلافة بعضهم لبعض حتى بلغت الحال أن يغتال الولد أباه من أجل عرش الخلافة. وكفيل بهذه الأحداث أن (تسحق) بهاء بيت الخلافة وتقوض أركانه، خصوصًا إذا أخذنا في الحسبان أن هذا الدق الشديد يأتي من الخارج بسبب الحروب والثورات، ومن الداخل حيث المكائد والاغتيالات. و"الدق بعد الدق" يتمثل بسرعة تعاقب الخلفاء على الخلافة، وتتابع الفواجع على بيتها، فما إن يستقر خليفة حتى يقتل أو يعزل كرها، فيكون من جراء ذلك زعزعةٌ للأمن وانتشار للظلم وضعف للدولة وزوال لهيبتها، ثم زوالها. وفي هذا يقول ابن المعتز في أرجوزته في المعتضد يصف حال الخلافة:

وكُل يَومٍ مَلكٌ مَقتولُ		أو خَائفٌ مُروَّعٌ ذَليلُ

(ابن المعتز، د. ت: ٤٠٤).

وسحقت الريحُ الأرضَ "إذا غيرت الأرضَ بشدة هبوبها"، وهنا نستذكر تلك (الرياح) في البيت الثالث، إذ هي التي تسببت بهذا (السحق)، ولكن قبل أن نمضي بتحليل البيت كاملًا سنقف عند المعنى المعجمي الثالث لمعنى (السحق)، فلا ريب أن الأرض ـ دار الخلافة- تغيرت تمامًا، بل اتخذت شكلًا جديدًا في زمن ابن المعتز لا عهد للخلافة به من قبل، حيث آلت جميع سلطات الخليفة إلى الجند من الترك[١٢]، وأصبح الأمر كما يقول جرجي زيدان: "بعد أن كان القُوَّاد يحلفون للخليفة بالطاعة، صار الخليفة يحلف لهم" (زيدان، ٢٠١٣: ٥٤٣). فما عادت ملامح دولة الخلافة هي ذاتها التي كانت عليها من قبل، لكنها ملامح جديدة مشوهة. وقد كان يعيش ابن المعتز في فترة الجندية حيث الأمور كلها بيد الجنود الأتراك، وما جاءت هذه الفترة إلا بعد أن انتهت فترة الدولة المركزية بمقتل المتوكل (مقدسي، ١٩٨٩: ٨). فهذه المعاني الثلاثة لكلمة (السحق) تدل على عناية ابن المعتز الشديدة في انتقائه للكلمات، وهي الكلمة الأنسب في هذا المقام للتعبير عن ضعف ابن المعتز وقلة حيلته في تغيير هذا الواقع المرير (المسحوق). ولكن من تولى هذا (السحق) غير تلك (الرياح) التي كانت تجيء في الليل، لقد سحقت الخلافة من كل جوانبها، حتى صارت هشة إلى الحد الذي تهاوت معه عند أول مصيبة وأول خطر، وهذا المعنى يدلنا عليه الشطر الثاني إذ يقول: "بواكر الأمطار"، أي أول المطر، وهو هنا كناية عن المصائب والمشاكل، فلكلمة الأمطار معنى سلبي في الثقافة العربية، فهي تدل على الغرق والهدم والبلاء،[١٣] وإنما المعنى الإيجابي عادة يكون باستخدام كلمة الغيث بدل (المطر)، وفي القرآن الكريم جاءت الكلمة بمعنى العذاب والدمار في معظم الآيات التي ذكرت المطر قال تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}

[١١] امتدت هذه الثورة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر، من عام ٢٥٥ حتى ٢٧٠ (انظر ضيف، ١٩٧٣: ٢٦).

[١٢] لما جلس المعتز على كرسي الخلافة أحضروا المنجمين وقالوا: "انظروا كم يعيش؟ وكم يملك؟، فقال أحد الظرفاء: مهما أراد الأتراك" (انظر الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ١٤)، وهذا النص يبين مدى سلطة الأتراك وتمكنهم من السيطرة على بيت الخلافة العباسي في ذلك الوقت.

[١٣] معلوم أن لكلمة المطر معنى إيجابي، لكنها هنا في البيت على المعنى السلبي بدليل كلمة) محتها (أي أبادتها وأخفتها لا أحيتها.

(الأعراف:٨٤)، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} (الفرقان:٤٠)، وفي ذلك يقول سفيان ابن عيينة: "ما سمى الله مطرًا في القرآن إلا عذابًا" (العسقلاني، ٢٠٠١: ج١، ١٨٩). ولو أطلنا التأمل في البيت نجد أنه يحمل جميع معاني الدمار، فكأننا نبصر لوحة مخيفة سوداء، فكلمة (سحقتها) و(الرياح) و(محتها) و(الأمطار)، كلها تدل على دمار عظيم، فكلمة واحدة منها تكفي للدلالة على الدمار، لكن ورود هذه المفردات الأربع في بيت واحد له دلالته الخطيرة، فكما تقدم التفصيل في معنى (السحق) و(المطر)، نجد أن مفردة (المحو) تأتي كتأكيد على عدم بقاء أي أثر للحياة، فهو لم يكتف (بانسحاق) الأرض حتى أكد على انمحائها وفنائها.

وأما كلمة (الرياح) فقد استخدمها الشاعر هنا كجمع لمفردة ريح، أي أنه استخدم الرياح للدلالة على الدمار. ففي الثقافة العربية تحمل مفردة (ريح) دلالات مخيفة، بل إنها كانت سببا في تعذيب أقوام وإهلاك أمم، وقد قال تعالى في كتابه:{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} (الذاريات:٤١)، وتكون أيضا دلالة لمعاني الفناء كما في قوله تعالى:{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} (الكهف: ٤٥)، فنحن هنا أمام صورة مكثفة مرعبة، فليس هذا التكثيف إلا دليلًا على تهدم نفسية ابن المعتز، وعلامة على ضياع مجد الخلافة، ولكن هذا الضياع يكاد يكون أبديًا، لا يمكن استعادته كما تدل على ذلك كثافة مفردات الفناء في هذا البيت.

أما البيت رقم ٦ فهو خاتمة المقدمة الطللية في هذه القصيدة، وقد ابتدأه بسؤال كما فعل في مطلع القصيدة، فيعود الشاعر هنا ليسأل عن أهل الديار الذين كانت تتزين بهم، ثم يحوّل الخطاب إلى أهل الديار الذين قد فنوا بقوله: "عهدي بكم فيها"، وهو في سكرة الحزن والألم، ولو تساءلنا لماذا استخدم: "بكم" ولم يستخدم (بهم) لوجدنا أن "بكم" هنا تعبر عن حالة البكاء التي كانت تعتريه وهول الصدمة التي تغشّته تعبيرًا أكثر من استخدام: (بهم)، فهذا الانتقال في الخطاب من التساؤلات الوجدانية الداخلية إلى مخاطبة (الخارج) وهو عالم الأموات وسؤالهم رغم أنه لن يحصل على إجابة منهم يكشف عن حجم الفاجعة التي كان يمر بها. ولا عجب إن وصل إلى هذا الانهيار وإلى هذه الحالة الذاهلة، وهو الذي مذ أفاق كان يتمتع بأرغد العيش وأطيبه، وما كاد أن يصل إلى التاسعة حتى فُجع بمقتل أبيه، ويجد نفسه منفيًا مع أخواته وجدته إلى مكة (انظر الصولي، ١٩٧٨: ج٢، ٤١)، ولو تأملنا قوله: "جميعا" لوجدنا أن هذه الكلمة تكشف لنا عن طبيعة (جنته المفقودة) عندما كان بيت الخلافة متماسكًا لم تمزقه الفرقة المبنية على التنازع في الملك والاقتتال عليه. وفي الشطر الثاني يستدرك ابن المعتز على نفسه ويتجاهل السؤال الأول بسؤال تعجبي آخر فيقول: بل أين الديار ذاتها ونزعم بأنه يقصد الخلافة هنا إذ لم يبق منها شيء مذ آل الأمر إلى الأتراك يدبرونها ويقودون زمامها.

وفي البيت رقم ٧ يبدو أن ابن المعتز يحاول تشكيل نقطة انطلاق جديدة، وابتداءً من هذا البيت تتخذ القصيدة طابعًا آخرا حتى نهايتها، وتتحول نبرة الحزن إلى صرخة غضب، وحالة الانكسار، إلى حالة تأهب للحرب ومطالبةٍ بالثأر، فهنا يدخل ابن المعتز في مرحلة الفخر، وهي المكون الثاني من مكونات القصيدة الطللية عنده، فيصف ابن المعتز حصانه بالسرعة والقوة، وهو يجتاز به الأرضَ ليلًا. وقد يبدو غريبًا أن يأتي هذا البيت بعد سياق طللي متناغم، فما علاقة وصف الحصان وذكر المسير ليلًا بما قبله من بكاء على الأطلال وانكسار أمام استدعاءاتها؟ قد يبدو للوهلة الأولى أن ليس لهذا علاقة بما قبله، وأن ما

كان من ذكر للطلل ليس إلا طريقًا للوصول إلى قلب القصيدة وموضوعها الأصلي (الفخر)، ولكن الأمر عند التأمل ليس كذلك، بل هو مرتبط كل الارتباط بما قبله، شديد الصلة به.

لقد ابتدأ ابن المعتز القصيدةَ بوصف الأطلال المتهدمة وهي رمز (للخلافة) ثم ذكر الرياح وهي رمز (للأعداء) فتلك الرياح قد سحقت هذه الأطلال وسحقت أهلها وهم (الخلفاء). إذن، إما أن يكتفي ابن المعتز بالعجز والبكاء أمام كل ذلك دون أن يتدخل لتغيير هذه الحال البائسة، وإما أن يفعل ما يجب على مثله فعله وهو (الثأر)، إذ هو سليل هذه الأسرة المغدور بها والوصي القادم على عرش الخلافة، وقد اختار التعبير عن الثانية. لقد اختار التعبير عن الثأر لجده وأبيه، وللخلافة، ولذلك امتطى حصانه، والخيل كما هو معلوم لها دلالتان أساسيتان في الشعر العربي الأول: الصيد، والثاني: الحرب، والخيل في هذه القصيدة خيل حرب لا خيل صيد. وتخصيص هذه الانطلاقة في الليل، لها دلالتان رئيستان، الأولى: هول الخطوة التي سيقدم عليها وخطورتها، إذ يدل (الليل) على فساد المحيط الذي سينطلق منه وإليه، وإن هذا الفساد -الظلم والخوف- سببه الحكام الفعليون وهم الأتراك، فهي معركة ضد خصم متغلب لا يكاد يقهر،[١٤] ومحاولة تغيير هذا الفساد بمواجهة رؤوسه فيه خطورة بالغة قد تودي بحياة ابن المعتز، وهذا يستلزم الدلالة الثانية وهي: الشجاعة، فلا يمكن أن يتقحم أحد هذا الليل من غير شجاعة وجراءة، ولذلك كل ما سيجيئ بعد هذا البيت إنما هو فخر بالنفس واعتزاز بالمحتد. ولا بد أن نشير إلى أن ابن المعتز يرى أن لا سبيل إلى الخلاص من هذا الليل المطبق على سماء الخلافة إلا بشخصه هو، لأنه هو الفجر المنتظر لإزاحة هذا الظلام، يقول في إحدى قصائده:

خَاضوا الظَلامَ بَعْدِي		وكُنتُ فِيهِم فَجْرَا

(ابن المعتز، د. ت: ١٩٢)

ومن تركيب الشطر الأول في البيت رقم ٧ "ولقد أهتدي" يتبدى لنا امرؤ القيس ببيته الشهير في معلقته:

وَقَدْ أغْتَدِي والطّيرُ في وُكنَاتِهَا		بِمُنْجَردٍ قَيدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ

(الزوزني، ٢٠٠٢: ٦٣)

فابن المعتز لم يكتف بمشاكلة امرئ القيس تركيبيًا بقوله: "ولقد أهتدي" وإنما شاكله أيضًا بزمن المسير "على طرق الليل"، وقول امرئ القيس: "والطير في وكناتها" كناية عن الليل، وفي الشطر الثاني كذلك من نفس البيت يصف الخيل كما فعل امرؤ القيس في بيته، فهل كان يعي ابن المعتز وهو يكتب هذا البيت أنه يحاكي امرأ القيس؟ نحسب أنه كذلك، بل ربما جعل امرأ القيس أنموذجًا يحتذي حذوه، وكيف لا يكون ذلك وهما يتشابهان تشابهًا كبيرًا من جهة المزاج، ومن جهة الظروف السياسية والاجتماعية، فكلاهما سليل بيت الملك، وكلامها كان منصرفًا عن السياسة في بداية أمره، وكلاهما كان يحب الطرد ويعكف على الشرب، وكلاهما قُتِلَ أبوه، وكلاهما عاش بنفسية المطالب (بالثأر) والانتقام.[١٥]

[١٤] خسر المعركة أمام الأتراك أكثر من خليفة، وأبرزهم المتوكل والمعتز.

[١٥] ومن غرائب الموافقات أن كليهما مات قتيلا.

والتخلص بذكر الخيل يتكرر في عدة قصائد طللية، مما يدل على أن هذا التخلص ليس اعتباطيًا أو أنه جاء على سبيل المحاكاة الشعرية، بل إن له رمزية محددة تدل على ترسخ رغبة الثأر والانتقام في نفسية ابن المعتز، ونذكر على سبيل المثال قوله:

زجرتُ به سَيّاحَ قفرٍ كأنهُ		يَخافُ لحاقًا أو يُبادرُ آفلا

(ابن المعتز، د. ت: ٣٢٢)

وقوله:

شَهدتُ بطِرفٍ أعوجيٍ وطِرفةٍ		وعَضبِ حُسامِ الحدِ في متنهِ أثْرُ

(ابن المعتز، د. ت: ١٧٣)

والطرف الأعوجي هو الجواد المنسوب إلى أعوج وهو من فحول الخيل المعروفة، وقوله:

ولقد أغتدي على طائرِ العد		وِ جوادٍ مُسوّمٍ يعبوبِ

(ابن المعتز، د. ت: ٧٩)

فكل هذه الأبيات التي يصف فيها الشاعر حصانه وقوته وردت في سياق الحرب والفخر بقوة الشاعر في المعارك واقتحام الجيوش. لذلك يمكن القول بأن ذكر الحصان في قصائد ابن المعتز يعبر عن تجذر رغبة الثأر ورغبة استرجاع العرش المفقود في نفسيته.

ويستمر الشاعر في البيت رقم ٨ في وصف الحصان، فيمكن أن نقرأ البيت قراءة عادية، ونقول: إن ابن المعتز يتفنن هنا في رسم الصورة ويمارس هوايته المفضلة في الشعر وهي التشبيهات[١٦]، غير أن هذا لا يتفق مع منهجنا في تحليل هذه القصيدة، فلا ريب أن في البيت تفننًا في التشبيه، ولكن الجانب الأهم هو الكشف عن دلالة هذا التشبيه. إن الشطر الأول "بلل الركض جانبيه" يشير إشارة صريحة إلى كثرة مساعي ابن المعتز في الإصلاح وجهوده في التغيير، حيث إن المسير في الليل (محاربة الفساد) قد أجهد هذا الحصان وصاحِبه إلى الحد الذي تبلل معه الحصان من العرق. وتتجلى محاولات ابن المعتز الإصلاحية في نواحٍ عدة، ففي الناحية الفكرية، نظم قصائد ومقطوعات تشيد بأحقية بني العباس في الخلافة، وحارب الطالبيين فكريًا من خلال قصائد عديدة منها القصيدة التي مطلعها:

ألا من لعينٍ وتَسكابِها		تَشّكى القَذى، وبُكاها بِها

(ابن المعتز، د. ت: ٤٦)

ومن الناحية الاجتماعية كان يصرح بنواياه في رأب الصدع بين العباسيين والطالبيين حتى يعودوا كيانًا واحدًا متصالحًا حين يصبح هو الخليفة، وقد نقل الصولي (توفي:٣٣٥هـ) عن ابن البصري قوله: " كنت أجالس عبد الله بن المعتز وكان يحلف لئن ملك من هذا الأمر شيئًا ليجعلن البطنين بطنًا واحدًا، وليزوج

[١٦] "وابن المعتز أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات" (الداية، ١٩٨٠: ٩٧).

هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وقال: لا أدع طالبيًا يتزوج بغير عباسية، ولا عباسيًا بغير طالبية" (الصولي، ١٩٣٦: ١٠٩). فهذا نص صريح على فكره الإصلاحي والذي ينم عن جهود إصلاحية قائمة، وكثير من قصائده كانت تحمل نفَسَ الدعوة إلى الصلح والوحدة مع الطالبيين كقوله:

بني عَمنا عُودوا نَعُدْ لمودةٍ		فإنا إلى الحُسنى سِراعُ التعطّفِ
لقد بَلَغَ الشيطانُ من آل هاشم		مَبالِغَهُ من قَبلُ في آل يوسفِ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٧٨)

ومن الناحية السياسية، كان يهجو بعض أمراء الجند والوزراء والولاة، ومن ذلك قوله:

وولاتُهُ نَبطٌ زنادقةٌ		ملأى البطونِ وأهلُها خمصُ
وجُنودُهُم تَحمي رَعيّتَهم		ولهم على أكبادِهم رقصُ
غَلَبَت خِيانتُهم أمانتَهم		وطَغى على تقواهمُ الحرصُ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٣٨).

فهذا كله سعي حثيث في الإصلاح على مستويات عدة، إلا أن الإصلاح في هذه القصيدة هو إصلاح حربي، ويدلنا على هذا تشبيه العرق المتصبب من الفرس بالخمر(العقار) لأن الخمر من لوازم الحرب وطقس من طقوسها عند العرب، وفي ذلك يقول حسان ابن ثابت عن الخمرة في قصيدته التي هجا فيها قريشا قبل فتح مكة:

ونَشْربُها فَتَتْرُكنا مُلُوكًا		وأسدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللِقاءُ

(ابن ثابت، ١٩٩٤: ١٩).

والارتباط بين موضوعة الخمر والحرب خاصة فكرة الموت والحياة التي يحتويها هذان الموضوعان متجذر في الثقافة العربية القديمة (انظر بريري، ١٩٨٦: ٨٣)، لذلك لسنا نتعسف في تأويل البيت الثامن على أنه يدل على مساعي ابن المعتز في تغيير واقع بيت الخلافة، لأننا لو كنا إزاء نص جاهلي أو محارب حقيقي يتكلم عن فرس حقيقية لما صح لنا أن نقرأ البيت بهذه الطريقة، لكننا أمام حصانٍ يُستعمل كرمز تنطوي تحته معانٍ عديدة تختلج نفس الشاعر.[١٧]

وفي البيت رقم ٩ يوضح ابن المعتز للمتلقي هدف رحلته ووجهتها، وهو ينفي أن تكون هذه الرحلة من أجل الرزق لذلك يقول في الشطر الأول "لا تشيم البروق عيني"، ثم في الشطر الثاني يقصر ابن المعتز الرحلة على الحرب وقتال الأعداء في قوله "إلا إلى العدى أسفاري"، وذِكر الأعداء هو المكون الثالث في معادلتنا لتحليل القصيدة ومعنى ذلك أن كل رحلة يقدم عليها إنما يجب أن تُفهم على أنها رحلة حربية

[١٧] لم نقع على نص يشير إلى أن ابن المعتز خاض معركة واحدة رغم كثرة المصادر التي تناولت حياته.

إصلاحية لاستعادة (الملك المفقود). وهذا البيت تأكيد لما ذهبنا إليه في البيت السابق، فهو أراد أن يدفع الوهم عن ظن المتلقي أن تكون هذه الرحلة لشيء من أمور الرزق وما إلى ذلك.
ويسترسل ابن المعتز في البيت رقم ١٠ في دفع الظنون التي قد تعتري فهم المتلقي من مغزى هذه الرحلة، ويؤكد أنها تسمو عن الأغراض الآنيّة القصيرة والتي لا تليق برجل في مكانته كطلب العطاء من الغير، وكأنه يطلب من المتلقي أن يعامله بوصفه أميرًا لا شاعرًا. فركوب الخيل واجتياز الطرق في الليل في حالة ابن المعتز هذه هي رحلة أمير له هدف حربي لا تكسبي. ثم يؤكد في الشطر الثاني وبحجة منطقية أن طلب الأعطيات لا يليق بمن هو في مقام ابن المعتز، فكيف تَطلب السحابة المدرارُ المطرَ، وهو غني بنفسه وماله عن كل أحد. ونلاحظ في هذا البيت أنه استخدم مفردة "الأمطار" لكنها أمطار غيث وحياة وخصب لا أمطار هلاك. وله في موضع آخر يؤكد على أنه غير محتاج لأحد:

ومَا ليَ في أحَدٍ مَرْغَبٌ		بلَى فيَّ يَرغَبُ كُلُ الورى

(ابن المعتز، د. ت: ٣٢)

في الأبيات السابقة كان تركيز ابن المعتز في الفخر على نفسه، أما في البيت رقم ١١ فقد انتقل من فخره بنفسه إلى فخره بنسبه وأهله. وهو باستدعائه لنسبه يؤكد استحقاقه من الجانبين، جانب الكفاءة والخصائص الشخصية، وجانب النسب والمكانة الاجتماعية. ونلاحظ في البيت أن ابن المعتز يعرض بالطالبيين ويغض منهم من جهة أنهم لم يحوزوا الخلافة، وهذا يتضح لنا من قوله: "مخصوصٌ يَبيتُ مِن هاشِمٍ غَيرَ عارٍ" أي عارٍ من الخلافة، فكلا العباسيين والطالبيين من هاشم، لكن الخلافة في بيت بني العباس، وهو يرى أنها ميزة لهم على الطالبيين، ونرى أنه بذكره لنسبه -مع أنه لا يخفى على أحد شرفه- يريد أن يشير إلى قضية (الثأر)، من جهة أن بني هاشم لا يتركون دمًا لهم إن طال الزمان أو قصر، ولذا فرحلته الحربية وإصراره على الانتقام لا ينبغي أن يكونا موضع استغراب، لأن بني هاشم لا يضيعون دمًا لهم. وهذا المعنى قد أشار إليه ابن المعتز في إحدى قصائده:

تَحْسَبُ قَومي يُضَيّعونَ دَمي		ما ضَاعَ قَبْلي لِهَاشِمٍ ثَارُ

(ابن المعتز، د. ت: ٢١٥)

ويعود ابن المعتز للفخر بنفسه في البيت رقم ١٢ فقد حاول في البيت السابق أن يثبت استحقاقه من جهة النسب، في الشطر الأول إذ يُظهر صفة المهابة على نسبه، ويثبت لنفسه صفة القدرة والقوة في الشطر الثاني. فيأتي البيت رقم ١٢ ليفصل في قدراته الذاتية، ولكن هنا تساؤلٌ مستحق، مَن المعني في الشطر الأول بقوله: "الأعادي" ومن هو "الجبار" في الشطر الثاني؟ يبدو أن ابن المعتز في هذا البيت يفتح نيران الحرب على الجميع، ونعني بالجميع هم الطالبيون والأتراك، فالمقصود بالأعادي هم الطالبيون الذين لا يستطيعون أن ينفسوا عن غيظهم المكتنز في صدورهم لمنعة ابن المعتز وهيبته على حد قوله، والذي يدلنا على هذا الرأي أنه صرح بهذا المعنى في موضع آخر من ديوانه إذ يقول:

فَسُبحانَ رَبي مَا لِقَومٍ أرى لَهم		كَوَامِنَ أضغانٍ عَقَارِبُـهـا تَـسـرِي
إذا مَا اجتَمعنا فِي النديّ تَضَاءَلوا		كما خَفيَتْ مَرضَى الكَواكِبِ في الفَجرِ

بَنو العَمِ لا بَل هُم بَنو الغَمِ والأذى		وأعوانُ دَهري إنْ تَظَلّمتُ مِن دَهرِي

(ابن المعتز، د. ت: ١٨٠)

فهم يخزنون الغيظ ويتضاءلون إن اجتمعوا به، وهو قد أنذرهم سابقا -أي الطالبيين- بأنهم إن استمروا في محاولات نيلهم من أمن الخلافة لَيكون بينه وبينهم الدم، ولن تكون القرابة مانعة له من قتالهم:

فلا تُكثروا شَوكَ الأذَى في غُصُونِكمْ		فَيَكثُر مِني فِيكمُ الكَسرُ والخَبطُ
ولـيسَ لقُربَـاكُم وأنتمُ عـَقَقتُـمُ		على السَيفِ يَومَ الرَوعِ عَهدٌ ولا شَرطُ
----------------------		----------------------
سَتَدرُسُ آثـارُ المَحبـةِ بَيـنَنَـا		ونحن بَنو عَمٍ كَما انفرجَ المِشطُ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٤٨)

وفي البيت "ستدرس آثار المحبة بيننا..." تنبأ ابن المعتز بمصير هذه العلاقة المضطربة التي آلت إلى مزيد من التناحر والفرقة. وأما مفردة "الجبار" في البيت رقم ١٢ فلا نشك أنه يقصد بها (الأتراك) لأنهم كانوا ممسكين بزمام الأمور في الدولة متحكمين بشؤونها، فهم يرفعون من أرادوا، ويخسفون بمن أرادوا وهذه صفة الجبابرة، ولابن المعتز ثأر عندهم لقتلهم والده.

أما الأبيات من البيت رقم ١٣ إلى البيت رقم ١٧ فتبدو جوابًا لسؤال نشأ عن البيت رقم ١٢ "أخزن الغيظ في قلوب الأعادي..."، فبم يخزن الغيظ في قلوب أعدائه؟ وكيف يُنزل الجبار دار الصغار؟ فكانت هذه الأبيات جوابًا مفصلًا عن هذا السؤال. فهو له الخيول التي لا تعرف الهرب، والسيوف التي تهتز وتتساقط على رقاب الأعداء في قوة وسرعة لا تهدأ، تتعاقب عليهم تعاقب قطرات المطر، والدروع الصلبة القوية، والسهام التي لا تخطئُ أهدافها، وقدوره التي لا تكف عن إكرام الضيوف، وهو بهذا كله يشير إلى حاله بعد أن يصبح خليفة. وكأنه يقول: سيتم ذلك كله عندما أكون خليفة ويكون لي الأمر، عندها سيكتم الأعداء غيظهم رغم أنفهم لعجزهم، وأنزل الجبابرة العتاة منازلهم، وأخلص الخلافة من شرهم. والمثير في ذكر كل هذه القوة في الأبيات السابقة أنها تعكس حلمًا بعودة الخلافة قوية تجتمع فيها كل صفات السيادة والسلطة من قدرة على حماية كيانها وإحلال الأمن ورغد العيش لكل من يعيش تحت رايتها.

وفي البيت رقم ١٨ والبيت رقم ١٩ يكمل ابن المعتز طموحه فيعود لذكر (النار) مرةً أخرى، فبعد أن كانت هذه النار مقتولة في البيت رقم ٢ من القصيدة، نجدها في هذين البيتين نارًا متجددة قوية حية، فهو يصف الخلافة في حالة عودتها للقوة وقد دبت الحياة فيها من جديد، لتصبح نارًا قوية تحرق كل من يريدها بشر. وربما دلت هذه النار أيضا على الخليفة نفسه -أي ابن المعتز- لِما مضى من القول بأن ابن المعتز كان يشبه الخليفة بالنار.[١٨] وهذه النار التي يصفها ابن المعتز لا تنحصر في مكانها بل ترتفع لتعم أرجاء الخلافة، وهي نار تتمدد عن طريق الحرب كأنها الراية الحمراء لتفري الدجى وهو يرمز بالدجى للأعداء

[١٨] انظر تحليل البيت الثالث.

الذين سلبوها حياتها ونشروا الظلم فيها. وهو هنا يرسم شيئا من طموحاته ورغباته في الثأر عندما تؤول إليه الخلافة.

بعد أن وصف ابن المعتز طموحاته للخلافة يأتي في البيت رقم ٢٠ ليلمح إلى أنه سيتمكن من تحقيق ما عجز عنه من جاء من الخلفاء قبله وهو إرساء دعائم العدل وتحقيق الأمن، وذلك بقوله: "ترديتُ بالمكارم دهرًا"، إذ قد تهيأ للخلافة واستعد لها بسعيه للمكارم والتخلق بها، وهو يقول في موضع آخر:

وأسهرُ للمجدِ والمكرماتِ		إذا اكتحلتْ أعينٌ بالكَرى

(ابن المعتز، د. ت: 32)

وقوله:

أنا من تَعلمونَ أسهرُ للمجـ		ـدِ إذا غَطَّ في الفِراشِ لَـئيمُ

(ابن المعتز، د. ت: ٣٣٠)

وهو بفخره بنفسه ومعرفته بمكانته غني عن الفخر بقومه، لأنه لم يدخر جهدًا في دفع نفسه إلى المجد وتحقيق الكمال "وكفتني نفسي من الافتخار"، بل إن هذه النفس هي التي جعلت من أبيه سيدًا لقومه حتى بعد موته، لأنه خلَّف رجلا كعبد الله - ابن المعتز:

أنا ابن الذي سَاءَهم في الحَياةِ		وسَادَهم بِي تَحتَ الثَّرَى

(ابن المعتز، د. ت: ٣٢)

أما في البيت رقم ٢١ فقد بلغ فخر ابن المعتز بنفسه منتهاه، فهو يقوم مقام جيش كامل وحده، والجيش الكبير بأكمله "الجحفل الجرار" لا يسد مسد ابن المعتز، وهذا غاية الفخر بالنفس والاعتداد بها. لكننا نلمس في هذا البيت نبرة حزن لم تستطع قوة البيت إخفاءها، فتكرر كلمة "وحيد" في الشطرين تحمل دلالة الغربة والانفصال عن محيطه، وهذا المعنى يبرز بشكل واضح في ديوانه. وكأنه عندما بلغ نهاية القصيدة وتخلص من سكرة الفخر وسكنت عنده ثورة رغبة الانتقام، تأمل في واقعه فأبصر غربته وفقدانه لمن يثق به فأحس بالانكسار والتشتت، خصوصًا أن هذا الذي يقدم عليه من إصلاحات ضخمة تحتاج إلى معين ثقة يعينه، لكنه وحيد، وهذا ما جعل الحزن يتسلل إلى هذا البيت الممتلئ فخرًا. ومما يؤكد هذه الغربة قوله:

إني غَريبٌ بِدارٍ لا كِرامَ بها		كَغربةِ الشَعرةِ السودَاءِ في الشَمطِ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٤٧)

فهو كما نرى وحيد في محيط ليس فيه كريم واحد يعينه على تحقيق مراده في إعادة الوهج والحياة للخلافة، وعند تأمل تشبيهه "كغربة الشعرة السوداء في الشمط"، تتضح لنا دلالتان بارزتان، الأولى: أن لديه مشروعات فتية شابة، لتجديد الخلافة التي شابت لكثرة الكوارث الملمة بها، وأنه هو نفسه رمز لهذا التجديد. والثانية: هي التباين الشديد بينه وبين أهل الحل والعقد من أهله، فتسهل ملاحظة الشعرة السوداء بين الشعر الأبيض مباشرة دون إطالة نظر، فلقد بلغ التباين بالطباع والرؤية بينه وبين قومه إلى هذا الحد

من الاختلاف. ويبدو أنه كان يملك أفكارًا ثورية حادة ليزعم أنه في دار "لا كرام بها"، إذ هم خانعون لسطوة الترك وحكمهم، وكان كثير من الخلفاء والأمراء يخشون الأتراك. ونذكر في هذا السياق الذي يبين اختلاف ابن المعتز وانفصاله عن محيطه ما قاله الصولي عن ابن المعتز: "كان رأيه مخالفا للعامة" (الصولي، ١٩٣٦: ج٣، ١٠٧). ومما يدلنا على أفكاره الثورية هذه الأبيات يخاطب فيها آل العباس:

يا آل عباسٍ لعًا من عَثرةٍ		لا تركُنُنّ إلى الغُواة الحُسَّدِ
إيّاكُم مِن بَعدِ ما إيّاكمُ		كُونُوا لهم كأراقمٍ في مَرصَدِ
وخُذُوا نَصَائحَ حَازِمٍ مُتَعَصبٍ		بالشَّيبِ مُجتمِعِ النُّهَى مُتَأسّدِ
شُدُّوا أكُفّكُمُ عَلى مِيراثِكُم		فالحَقُّ أعْطَاكُم خِلَافَةَ أحمدِ
ومتى يَرُمْها الرائِمُونَ فَبَادِروا		هَامَاتِهِمْ حَصْدًا بِكُلِ مُهَنَدِ
----------		----------
هذا هُو النُّصْحُ الصَريحُ ورُبما		مَحَضَ النَّصِيحَةَ صَاحِبٌ لَمْ يَجْهَدِ

(ابن المعتز، د. ت: ١٣٨-١٣٩)

فهو كما نرى شديد الرأي حازم، يريد أن يحافظ على هذا الميراث الذي هو حق أكيد لآل بني العباس، ويقول في قصيدة أخرى:

يا قومِ بَلْ لا قومَ لي		هُبّوا مِن الرَّقَدَاتِ
إني أرى رَيبَ الزَّما		نِ مُـولـيًا بِشـتَاتِ
ذُلٌ عَلى مُلك يُجَ		رَّعُ كـأسَهُ بِـقَـذَاةِ
----------		----------
والشرُّ بَعدَ وقُوعِهِ		في النَّاسِ، ذُو وَثَبَاتِ
هُبّوا، إفاقةَ حَازِمٍ		ثُم اسكَروا سَكَرَاتِ

(ابن المعتز، د. ت: ١٠٣)

فهو محتدم من أجل الخلافة، يصيح بقومه لكنهم لقلة حزمهم كأنهم غير موجودين "بلْ لا قومَ لي" وعندما نقرن هذا بقوله: "بدارٍ لا كِرامَ بها" تكتمل صورة الخذلان الذي يراه من قومه وتباين رأيه عن رأيهم وغربته بينهم. وهذا شأنه في قصائد كثيرة ومقطوعات عدة حيث تتجلى ثورته ويتضح حزمه. أما اغترابه فهو لا ينفك يذكر هذا في قصائده وأبياته، ونمثّل لقولنا هذا بقوله:

يا دَهرُ ما أبقيتَ لي من صَديقِ		عاشرتُه دَهرًا، ولا مِن رَفيقِ

(ابن المعتز، د. ت: ٢٩٢)

ويقول في موضع آخر:

وجَفاهُ الإخوانُ حَتى وحَتى		سَمِّ من شئتَ من حبيب قريبِ

(ابن المعتز، د. ت: ٧٧)

وقوله:

وأفْرَدَني من الإخوانِ عِلمي		بِـهم، فَبَقيتُ مَهجُورَ النَّواحي

(ابن المعتز، د. ت: ١٣١)

فهو وحيد في كل شيء، في شخصيته، في آرائه، وحيد من الصاحب والمعين، وهذا الأمر تجلى في بيته الأخير رقم ٢١ ليصبغ عليه صبغة الحزن والقلق، وإن بدى ابن المعتز في بيته الأخير قويًا إلا أنه لم يتمكن من محو هذا الشعور الحزين الذي ظهر فجاءة ليكشف عن نفسه الحائرة. ويقول طوني كساب عن ابن المعتز: "أبيات الفخر في شعره دائما قليلة العدد عميقة الأبعاد لا يبدو فيها أثر التكلف والصنعة، فكأنها تعبر عن مكنونات نفسه الدفينة" (كساب، ١٩٩٥: ١٣٢). ونحن نقول إن هذا هو شأن الفخر عند ابن المعتز على الرغم من ظهوره بنبرة صاخبة إلا أن له حسًا غريبًا قلقًا. ومن خلال ذلك يتبين لنا أن ابن المعتز غير متأكد من مدى نجاح رحلته الحربية لاستعادة ملكه المفقود.

خاتمة:

بعد تحليل هذه القصيدة لابن المعتز تبين لنا الارتباط بين المقدمة الطللية في القصيدة وبقية الموضوعات التي تليها بشكل يعكس قضية ابن المعتز الكبرى ورؤيته السياسية التي عبر عنها بطرق متعددة. فذكر أولًا الأطلال التي ترمز إلى بيت الخلافة وحالته المتهدمة، ثم انتقل إلى المكون الثاني من مكونات القصيدة وهو الفخر، ففخر بحسبه ونسبه وقوته الشخصية. وبعد التعبير عن شرعيته وكفاءته للقيادة والحكم، انتقل إلى المكون الثالث ويكمن في رحلته لاستعادة الملك المفقود والانتقام من أعداء الخلافة العباسية. وبذلك نستطيع أن نقول بأن كل قصيدة من قصائد ابن المعتز التي تنتمي إلى هذا النهج، تبدأ بالأطلال لا بد أن تنتقل إلى الفخر وذكر الأعداء، فيفترض أن تفهم على أنها قصيدة سياسية تحاكي رغبات ابن المعتز في إصلاح بيت الخلافة والانتقام من أعدائها. ولعل المطلع على بحثنا هذا يستطيع أن يتناول موضوعات أخرى عند ابن المعتز كموضوعة الشيب والشباب أو موضوعة الخمر ليعيد فهمها بطريقة يكشف من خلالها هموم ابن المعتز وطموحاته السياسية.

المراجع:

--- البحتري، الوليد بن عبيد بن يحيى. (١٩٧٧-١٩٧٨). ديوان البحتري. سلسلة ذخائر العرب. تحقيق حسن كامل الصيرفي. (المجلد الثاني). الطبعة الثالثة. (مصر، القاهرة). دار المعارف.

--- ابن ثابت، حسان بن ثابت الأنصاري. (١٩٩٤). ديوان حسان بن ثابت. تحقيق عبدأ مهنا. الطبعة الثانية. (لبنان، بيروت). دار الكتب العلمية.

--- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر. (١٩٧٨). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. (المجلد ٣). (بيروت، لبنان). دار صادر.
--- ابن كثير، إسماعيل بن علب. (١٩٩٧). تفسير القرآن العظيم. تحقيق سامي بن محمد السلامة. (الجزء السابع). (المملكة العربية السعودية، الرياض). دار طيبة.
--- ابن المعتز، عبد الله. (د. ت). ديوان ابن المعتز. تحقيق عمر الطباع. (لبنان، بيروت). دار الأرقم.
--- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (١٩٩٣). لسان العرب. (عدد الأجزاء ١٥). الطبعة. الثالثة. (لبنان، بيروت). دار صادر.
بريري، محمد. (١٩٨٦). رمز الخمر في الشعر العربي القديم. **مجلة عيون المقالات**. العدد (٣). ص ص ٧٧-١٠٢.
--- جواد، مصطفى. (١٩٥٠). سيدات البلاط العباسي. (لبنان، بيروت). دار الكشاف.
--- حسين، طه. (٢٠١٤). من حديث الشعر والنثر. (مصر). مؤسسة هنداوي.
--- الحصري، إبراهيم بن علي بن تميم. (٢٠١٠). زهر الآداب وثمار الألباب. (الجزء الرابع). (لبنان، بيروت). دار الجيل.
--- الداية، محمد رضوان. (١٩٨٠). أعلام الأدب العباسي. الطبعة الثانية. (لبنان، بيروت). مؤسسة الرسالة.
--- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. (١٩٨٢). الشعر والشعراء. تحقيق أحمد شاكر. (الجزء الثالث). الطبعة الثانية. (مصر). دار المعارف.
--- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. سير أعلام النبلاء. (١٩٨٣). إشراف شعيب الأرنؤوط، تحقيق أكرم البوشي. (المجلد الرابع عشر)، (لبنان، بيروت). مؤسسة الرسالة.
--- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد. (٢٠٠٩). تفسير الكشاف. الطبعة الثالثة. (لبنان). دار المعرفة.
--- الزَّوْزَني، حسين بن أحمد بن حسين. (٢٠٠٢). شرح المعلقات السبع المؤلف الناشر. (لبنان، بيروت). دار إحياء التراث العربي.
--- زيدان، جرجي. (٢٠١٣). تاريخ آداب اللغة العربية. (مصر، القاهرة) مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
--- سلمان، علي جاسم. (٢٠٠٣). موسوعة أعلام الخلفاء. (الأردن، عمان). دار أسامة للنشر والتوزيع.
--- الشافعي، جلال الشافعي. (٢٠١٨). الشباب والشيب في شعر ابن المعتز: دراسة موضوعية وفنية، **مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمنهور**. العدد (٣). المجلد (٥). ص ص ٦٨٩-٧٥٦.
--- الصابي، الهلال بن المحسن. (د. ت). تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراجت. مكتبة الأعيان.
--- الصولي، محمد بن يحي. (١٩٧٨). شعر ابن المعتز. تحقيق يونس السامرائي. (القسم الثاني). (العراق، بغداد). دار الحرية.
--- الصولي، محمد بن يحيى. (١٩٣٦). كتاب الأوراق. تحقيق ج. هيورث. دن. ج٣. (مصر، القاهرة). مطبعة الصاوي.
--- ضيف، شوقي. (١٩٧٣). العصر العباسي الثاني. الطبعة الثانية. (مصر، القاهرة). دار المعارف.
--- ضيف، شوقي. (١٩٧٨). الفن ومذاهبه في الشعر العربي. الطبعة العاشرة. (مصر، القاهرة). دار المعارف.

--- عاشور، فرج ميلاد محمد. (٢٠١٧). التشخيص في شعر ابن المعتز. **مجلة العلوم الشرعية**. الجامعة الأسمرية الإسلامية. كلية العلوم الشرعية بمسلاتة. العدد (٣)، مايو. ص ص ٩٨-١٢١.
--- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. (١٩٥٩). فتح الباري: شرح صحيح البخاري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. إشراف محب الدين الخطيب. (لبنان، بيروت). دار المعرفة.
--- عطوان، حسين. (١٩٨٢). مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني. (لبنان، بيروت). دار الجيل.
--- القداح، محمد مرشد قسيم. (٢٠١٥). القيم الجمالية في شعر ابن المعتز، (رسالة ماجستير). عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة جرش، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.
--- كساب، نعيم طوني. ابن المعتز شعره في ضوء عصره وحياته. (لبنان). دار الملايين.
--- مقدسي، أنيس. (١٩٨٩). أمراء الشعر العربي في العصر العباسي. الطبعة السابعة (لبنان، بيروت). دار الملايين.

المراجع الأجنبية:

Robabeh Ramezani and M. Asghari and Ali Hosein**. (**2015). "The Impact of Autocracy on Ibn Moataz's Poem". *International Letters of Social and Humanistic Sciences*. Vol. 63. Pp. 95-109.

Stetkevych, S. (1993). *The Mute Immortals Speak: Pre-Islamic Poetry and The Poetics of Ritual*. Cornell University Press.

The Abodes of the Caliphate and the Caliph of the Abodes: ‘Abd Allāh ibn al-Mu‘tazz’s Political Vision through His Poetry

Dr. Hamad Alajmi
Arabic Language and Literature, college of Art, Kuwait University
Faleh Al Alazemi
A member of the Kuwaiti Writers Association, Kuwait

Abstract

This paper discusses the symbolic connotations of the abandoned abodes, *Aṭlāl*, in ‘Abd Allāh ibn al-Mu‘tazz’s poetry. Throughout his *Dīwān* (i.e., collection of poetry), the motif of *Aṭlāl* is strikingly apparent in its recurrence and distinctiveness. Therefore, by decoding the symbolic connotation that the motif of *Aṭlāl* carries, we can understand Ibn al-Mu‘tazz’s political vision. We believe that the motif of *Aṭlāl* shows Ibn al-Mu‘tazz’s larger concern, namely mending the vulnerable Abbasid caliphate. Moreover, this paper attempts to track the connections between the motif of *Aṭlāl* and the motifs following the *Aṭlāl*. For a better understanding, we focus mainly on one poem and use other, related poems from Ibn al-Mu‘tazz’s *Dīwān* to provide a poetical context. We conclude that almost every poem in Ibn al-Mu‘tazz’s *Dīwān* starts with the motif of *Aṭlāl* contains three basic elements: the *Aṭlāl*, which symbolizes the Abbasid caliphate; the motif of *fakhr* (i.e., the poet boasting about himself and his Abbasid ancestors), which reflects the poet’s desire to regain the lost caliphate; and his enemies, which reflect his desire to take revenge on the enemies of the Abbasid dynasty.

Keywords: Ibn al-Mu‘tazz, *Aṭlāl*, abodes, symbolic, Abbasid caliphate.